

الأسلوبية في تراث علماء الإعجاز - بحث في إشكالية التأصيل -

Stylistics in the legacy of miracle scientists
- a search in the problem of rooting -

1. بناني شهرزاد

1 أستاذ محاضر قسم (ب)، المركز الجامعي عبد الله مرسلتي تيبازة، Benani.chahrazed@cu-tipaza.dz

القبول: 2025-04-10

الاستلام: 2025-01-07

ملخص:

لقد قامت دراسات موسّعة حول قضية الأسلوب، والذي يُعتبر مبحثاً مهماً من مباحث البلاغة العربية، لما له من دور في الكشف عن القيم التعبيرية في الصياغة وارتباطها الوثيق بها، وتحديد مفهومه في الدراسات العربية الحديثة يؤكد جسر التواصل بين القديم والجديد، فكان العلماء يحاولون فهم أسرار البيان ووضع أصول موجزة تحدد آراءهم في جمال الأسلوب، فتعددت المفاهيم واختلفت، وقد وقفت الدراسات اللغوية والبلاغية للخطاب القرآني على ضفاف إعجاز القرآن الكريم، الذي سيبقى لغته معجزة على جميع المستويات، وتكمن أهمية دراسة الأسلوب في الكشف عن بعض كنوز القرآن الكريم، من حيث بلاغة تركيبه، فالأسلوبية علم له منبته وأصله في التراث العربي جسّدته إسهامات علماء نظّروا وقعدوا له على اختلاف مآربهم، ومن هذه الإسهامات سنقف على جهود بعض من علماء الإعجاز (الباقلائي، عبد القاهر الجرجاني) بشكل متسلسل يتجلى فيه فضل السابق على اللاحق وكيف أصّلوا لهذا العلم في تراثنا العربي.

كلمات مفتاحية: أسلوب؛ أسلوبية؛ إعجاز؛ تراث؛ تأصيل.

Abstract:

Extensive studies have been carried out on the issue of style, which is considered an important topic of Arabic rhetoric, because of its role in revealing the expressive values in the formulation and its close connection with it, and defining its concept in modern Arabic studies confirms the bridge of communication between the old and the new, so the scholars were trying to understand The secrets of the statement and the development of concise

principles that define their views on the beauty of the style, so the concepts multiplied and differed, and the linguistic and rhetorical studies of the Qur'anic discourse stood on the shores of the miraculousness of the Noble Qur'an, whose language will remain a miracle on all levels, and the importance of studying the style lies in revealing some of the treasures of the Noble Qur'an in terms of the eloquence of its structure Stylistics is a science that has its origin and origin in the Arab heritage embodied in the contributions of scholars who theorized and sat for it in their different aspirations, and from these contributions we will stand on the efforts of some of the miracle scholars (Al-Baqalani, Abdul-Qaher Al-Jurjani) in a sequential manner in which the virtue of the former over the latter is evident and how they originated. This flag is in our Arab heritage.

Keywords: style; stylistics; miracle; heritage; rooting.

المؤلف المراسل: بناني شهرزاد الإيميل: Benani.chahrazed@cu-tipaza.dz

1. مقدمة:

موروثنا العربي غني وقضية الأسلوب تطرقت لها أسماء عديدة برز جلّها في البلاغة، فقد مثّل الأسلوب مجالا خصبا للدراسات العربية القديمة، خاصّة تلك التي تعلّقت بمباحث الإعجاز القرآني في محاولة لإثبات الإعجاز فيه، انطلاقا من إقامة مقارنة بين الأسلوب الذي نُسخ عليه القرآن الكريم وبين غيره من الأساليب التي أتقنها العرب قديما، ودراسة الأسلوب حقيقة ثابتة في التفكير اللغوي العربي القديم وهناك جهود كبيرة لا مجال لإنكارها، بل لابد من اعتبارها أولى اللبّات التي تأسس عليها علم الأسلوب وعليه جاء المقال بعنوان: الأسلوبية في تراث علماء الإعجاز- بحث في إشكالية التأصيل - بهدف لفت انتباه الباحثين إلى حقيقة التراث وقيّمته، وكذا الاطلاع على الخيط الوثيق الذي يربط الأسلوبية بالتراث العربي، في محاولة للإجابة عن الإشكالات الآتية:

- هل عرف تراث علماء الإعجاز حضورا للأسلوبية؟ وإن تحقق ذلك فما مدى تجليها في

إسهاماتهم تنظيرا وتطبيقا؟

- وهل يمكن طرح إشكالية التأصيل لهذا العلم في التراث العربي؟

معتمدة على خطة العمل الآتية:

1-الإطار المفاهيمي للأسلوب عند العلماء العرب.

2-الأسلوب والأسلوبية إشكالية المصطلح.

3-تجليات الأسلوبية عند علماء الإعجاز.

1/3-الأسلوب عند الباقلاني.

2/3-الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني.

ولقد اعتمد في بناء هذا المقال على المنهج الوصفي التحليلي في التنقيب عن المفاهيم المتعلقة بالأسلوب، مستعينة بالمنهج التاريخي بشكل مقتضب عند محاولة التأصيل للجذور المعرفية للأسلوبية في التراث العربي من خلال النموذجين.

2. الإطار المفاهيمي للأسلوب عند العلماء العرب:

لقد اهتم اللغويون وغيرهم من العلماء وأصحاب المعاجم بالأسلوب ووضعوا له حدودا وتعريفات، ومن المصنّفات اللغوية والمعجمية التي حدّدت معنى الأسلوب، معجم العين لصاحبه الخليل بن أحمد الفراهيدي في مادة سلب في قوله: "سلب كل لباس على الإنسان سلب"، وسلب يسلب: أخذ سلبه والسُّلُوب من التَّوق التي يؤخذ ولدها، وجمعه سَلْبٌ وأسَلَبْتُ: فعلت ذلك. ويقال للشَّاء أسَلَبْتُ، ويقال: السَلَبُ: الطوال وفرس سَلَبُ القوائم وبغير مثله، السَلِيْبُ: الشجرة أخذت أغصانها وورقها وامرأة مسلَّب: سلبت على زوجها أو غيره محدّ وفرس، سَلَبُ القوائم: خفيف نقلها، ورجل سلب اليدين بالطعن: خفيفهما، وثور سَلَبُ القرن بالطعن أي خفيفة، وشجر السَلَب يكون فيه الليف الأبيض الواحدة، سَلَبَةٌ وهذليّة السَلَبُ ليف المقل وهو المسدّ." (الفراهيدي، 1423هـ/2003م، صفحة 262) فتعريف الخليل كان محوره مادة سلب، ثم أخذ عنها في الاشتقاق وفي كلّ مرّة يتغيّر المعنى بالإضافة أو بتغيّر الحركة.

وجاء أيضا في لسان العرب لابن منظور: "كلمة سلب في العربية مجاز مأخوذ من معنى الطريق الممتد أو السطر من النخيل، وكلّ طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب: الطريق والوجه والمذهب، ويقال أنتم

في أسلوب سوء، ويُجمع على أساليب، والأسلوب الفن، ويقال: أخذ فلان في أساليب من القول؛ أي أفانين منه. " (منظور، 2000، صفحة 225)، إذا بالنسبة لابن منظور تأرجح تعريفه للأسلوب بين المعنى المادي في اعتباره الطريق أو السطر من النخيل، والمعنى البلاغي في اعتباره فنّ.

ومن جهة أخرى نجد الجاحظ لم تمر عليه كلمة أسلوب، فلقد رسم لها تعريفا في كتابه البيان والتبيين فقال: "أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرا متوحّشا ولا ساقطاً سوقياً." (الجاحظ، دت، صفحة 137)

أما ابن رشيق في كتابه العمدة يطرح قول الجاحظ فيقول: "قال أبو عثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيته ملتحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم لذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان. إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّه سماعه وخفّ محتمله وقرب فهمه وعذب النطق به وحلى في فم سامعه، فإذا كان متناثرا متباينا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجّدتته المسامع، فلم يستقروا فيها منه شيء" (القيرواني، دت، صفحة 224)

وورد لفظ الأسلوب عند إسماعيل بن حماد الجوهري: فقال عنه: "سلب: سلبت الشيء سلبا، والاستلاب: الاختلاس،... والأسلوب بالضمّ: الفنّ، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي؛ في فنون منه. " (الجوهري، 1420هـ/1999م، الصفحات 225-226)، فالأسلوب عنده جاء بمعنى الأخذ في الفنون القولية.

وفي المقام نفسه يرى الرازي أنّ: "سلب الشيء من باب نصر، والاستلاب الاختلاس، الأسلوب: الفن. " (الرازي، 1979م، صفحة 308) وهكذا نجد أنّ تعريف الرازي يتوافق مع التعاريف السابقة التي ترى أنّ الأسلوب هو الفنّ.

هذا عن الحدّ اللغوي لمصطلح الأسلوب في المصادر العربيّة التراثيّة، أمّا عند العرب المحدثين، فقد طرّقوا باب الأسلوب أيضا وأرادوا تحديد مفهوم جامع، منهم: أحمد الشايب الذي قدّم تعريفات عديدة للأسلوب في كتابه الأسلوب فيقول: "الأسلوب: فنّ من الكلام يكون قصصا أو فالحوار أو تشبيها أو مجازا أو كناية أو تقريرا أو حكما أو أمثال. " (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 26)، فهو هنا يربط بين الأسلوب

والأجناس الأدبية التي يقوم بإنتاجها الأديب، ويضيف أيضا بأنّ الأسلوب: "طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير." (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 26).

فالشايب في هذا التعريف ربط بين الأسلوب والتركيب اللغوي، وطريقة تأليف الألفاظ المختارة والأغراض التي تؤديها من تأثير وإيضاح، ولم يكتف الشايب بهذين التعريفين، بل ذهب إلى تعريف آخر هو أنّ الأسلوب "هو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه، لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني." (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 26).

وإلى جانب أحمد الشايب نجد أحمد حسن الزيات يُعرّف الأسلوب "بأنّه طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام." (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 26)، ويضيف العقاد أنّ: "الأسلوب الأمثل في الأدب هو الأسلوب السهل الذي لا يكدّ الذهن." (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 24).

3. الأسلوب والأسلوبية إشكالية المصطلح:

مما لا شك فيه أنّ كلّ العلوم أو أغلبها تعرف تداخلا على مستوى مصطلحاتها، ربّما لتقارب في المعنى أو الوظيفة أو غيرهما، وهذا هو الشأن بالنسبة لمصطلحيّ الأسلوب والأسلوبية، هل المشكل هو تداخل على مستوى المعنى أم المعاصرة والتراث، فالمصطلحات تتقارب أحيانا وقد يحدث عادة بين مصطلحيّ الأسلوب والأسلوبية، لكن هناك وسائل منهجية ينبغي اتباعها عندما يوجد هذا التداخل بُغية الوصول إلى تحديد أدقّ للحيّز الذي يحتله كل مصطلح بالقياس إلى الآخر، ومن هذه الوسائل اللجوء إلى تحديد المستوى الأفقي والمستوى الرأسي، الذي يقع عليه كل مصطلح في تاريخ الفرع الذي ينتمي إليه. (درويش، دت، صفحة 15)

فالمستوى الأفقي نقصد به أنّ كلّ مصطلح يقع في نقطة تالية للآخر، ولا يمكن لأحدهما أن يوجد في زمن الآخر؛ أي أنّه تبقى بينهما علاقة جوارية أفقية، "وإذا انتقلنا بهذا المفهوم إلى مصطلحيّ الأسلوب والأسلوبية لوجدنا أنّ المصطلح الأول أسبق في الوجود من التّاحية التاريخية، وأوسع دلالة من التّاحية المعنوية،

فمن حيث الترتيب التاريخي للمصطلحين في لغاتهما التي عُرفا بها نجد أنّ مصطلح الأسلوب (le style) بدأ استعماله منذ القرن الخامس عشر، على حين لم يظهر مصطلح الأسلوبية (stylistique) إلا في بداية القرن العشرين؛ أي أنّه خلال القرون من الخامس عشر حتى التاسع عشر كان يوجد مصطلح الأسلوب فقط. " (درويش، دت، صفحة 16)؛ أي أنّ لمصطلح الأسلوب أسبقية تاريخية ودلالية من مصطلح الأسلوبية، كما أنّ مصطلح الأسلوب ضارب في القدم قدم البلاغة.

فإذاً عند تتبع التطور التاريخي نجد أنّ الأسلوب ذا صلة وثيقة مع البلاغة، وخاصة في تقسيم الكلام "ومن خلال هذه الزاوية فقد عرف البلاغيون في العصور الوسطى، وما قبلها تقسيم طبقات الأسلوب إلى ثلاثة أقسام: الأسلوب البسيط، والأسلوب المتوسط، والأسلوب السامي، وحددوا لكل واحدة من هذه الطبقات موضوعاتها التي تصلح لها مفرداتها، التي تُستعمل فيها وصورها التي تزدان بها. " (درويش، دت، صفحة 17)، وهذه النزعة هي نفسها نزعة التقسيم التي انتهجها العلماء قديماً في تقسيم البلاغة العربية، وعلى منوالها تمّ تقسيم طبقات الشعراء، وهنا نلاحظ تجلّي مصطلح الأسلوب في البلاغة العربية، والتي تجعلنا نجزم بأسبقية الفكر البلاغي العربي في استحواذ هذا المصطلح، إضافة إلى هيمنته من الناحية التاريخية إلى غاية سعي الدارسين إلى الرقي بهذا المصطلح، لتظهر الأسلوبية مع الدراسات اللغوية الحديثة.

أما من ناحية المبدأ فالأسلوبية تقوم على مبدأ العلمية والتجربة وتؤمن بما هو علمي، بعيداً عن الأحكام المعيارية فقد "نشأت الأسلوبية في حضن الدراسات اللغوية وكان أول ما واجهته ضرورة تحديد المادة الكلامية التي تصلح لكي تدور حولها دراسة أسلوبية، ذلك أنّ الأسلوبية تقتضي أن يكون الكلام ذا مستوى فنيّ معيّن منذ البدء، وأن يكون متميّزاً من الكلام الذي يُراد به الاستهلاك اليومي، وهنا تكمن المشكلة في تحديد مستويات الكلام وانتقاء أسلوب لكي يصلح للدراسة الأسلوبية، من هذه الزاوية وجدت الأسلوبية نفسها تعود إلى الأسلوب. " (درويش، دت، صفحة 19)

فالأسلوبية ولدت ونمت في أحضان الدراسات اللغوية، واهتماماتها ارتقت من الكلام العادي إلى الكلام الذي يكتنف أسلوباً ذا مستوى، وهنا نجد أنّه رغم المفارقات التي سبق ذكرها بين الأسلوب والأسلوبية، إلّا أنّنا اكتشفنا موطن تداخل يكمن في استناد الأسلوبية على الأسلوب في دراستها لمستويات

الكلام، والتداخل بين الأسلوبية والأسلوب يشبه تداخل الأسلوب مع البلاغة، غير أنّ الفارق يكمن في الزمن بين القدم والحداثة.

وبعد تحديد العلاقة الأفقية بين المصطلحين نقوم بتحديد العلاقة الرأسية، والتي تعني رصد العلاقات بين مجموعة من النقاط المتجاورة وفيما يتصل بتحديد هذه العلاقة في مجال مصطلحات العلوم، فإنّ ذلك يمكن أن يتمّ من خلال رصد دوائر المعنى، التي تدخل تحت كلّ مصطلح ومعرفة نوع العلاقة بينهما، ومن هذه الزاوية نجد الدائرة التي تغطيها كلمة الأسلوب أوسع وأشمل من تلك التي تغطيها كلمة الأسلوبية، فكلمة الأسلوب من حيث معناها اللغوي يمكن أن تُطلق على:

أ- النظام والقواعد العامة مثل الأسلوب لدى جماعة معينة.

ب- يمكن أن يعني الأسلوب الخصائص الفردية التي تميّز شيئاً عمّا سواه.

وعن طريق هذين التصورين حلّ استخدام مصطلح الأسلوب في الدراسة البلاغية والنقدية. (درويش، دت، صفحة 20)

فإذا الأسلوب يحتل أو يشغل مجالا أوسع من الأسلوبية في جانب المعنى، "أما عن الدائرة التي يحتلها مصطلح الأسلوبية أضيق بكثير، فهي تعني الوصول إلى وصف وتقييم علمي محدّد لجماليات التعبير في مجال الدراسات الأدبية واللغوية على نحو خاص، ولا تكاد تتعداها إلى غيرها من المجالات." (درويش، دت، صفحة 20)، فإذا بقاء الأسلوبية في زاوية الوصف والتقييم العلمي جعلها تشغل حيّزا ضيقا "لكن ظهور مصطلح الأسلوبية لم يُلغِ مصطلح الأسلوب، إنّما تحدّدت للمصطلح القديم دائرة ووظيفة في إطار المصطلح الجديد، ذلك أنّه كانت الأسلوبية تتعامل مع اللغة على أساس أنّها تحلّ من التعبير محلّ الرخام من النّحت، فإنّها تتعامل مع كلّ تعبير، بل مع لون معيّن منه." (درويش، دت، صفحة 20)

الهدف من وراء طرقنا لإشكالية الأسلوب والأسلوبية لم يكن محاولة إلغاء أحدهما أو تفضيل أحد على الآخر، فرغم ذلك يبقى كلاهما حلقتان متصلتان ببعضهما البعض، كما أنّ المشكل القائم بينهما لم يجعلنا نُحمل قضية الأسلوبية ومصطلح الأسلوب كحقيقة متأصلة في التراث العربي.

4. تجليات الأسلوبية عند علماء الإعجاز:

لقد ارتبطت كلمة إعجاز بنزول القرآن الكريم وتدوينه كثيرا، فلم تكن من قبل ذلك معروفة ومشهورة وذائعة بين العرب، فانفراد القرآن الكريم بأسلوب خاص وراقي أبهر العرب الفصحاء الذين عُرِفوا على أنهم أمراء في قول الشعر، حيث أنهم كانوا يتقنون اللغة العربية، وعجزهم عن الإتيان بمثل ما جاء به القرآن الكريم جعلهم يصفونه في تركيبه وصياغته بالمُعْجَز، وقضية الأسلوب طُرحت لدى علماء الإعجاز فراح كل واحد يُطل على الأسلوب من نافذته الخاصة وانطلاقا من مرجعيته العلمية واتجاهه الفكري، فمثّلوا عقدا فريدا متكاملة لآله، ورغم الاختلاف في تقديم المفهوم إلا أن الجوهر يصبّ في معين واحد هو الإعجاز القرآني، "فالقرآن الكريم يبقى له أسلوبه المتفرد في الكشف عن معانيه، وهذا الأسلوب يتمثل في الصبغة الذاتية التي يحملها الكلام، فهي صبغة ربانية إلهية، وهذه الصبغة الإلهية قائمة في كل كلمة من كلمات القرآن الكريم، وكل كلمة أعطاه الله تعالى وجودها الحقيقي الذاتي، وهذا هو الوجود الفعّال وهذا لا يُدرك عند البشر وإنما يُرمز له، فالمعاني الإلهية من قدرات غير محسوسة، وهذه الصبغة الإلهية تشكّل الطابع الإعجازي." (حرير، 2006، صفحة 34)

وهذا ما جعل الأسلوب القرآني أدخل في الإعجاز كون أسلوبه من نفس الألفاظ التي كانت معهودة للعرب ودائرة في أساليبهم، غير أن التركيب الذي نزل به لم يألفه ولا في نظم ولا في نثر، وهكذا سنقف عند علمين كان لهما إسهام في قضية الأسلوب في علم الإعجاز وهما: الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني.

1.4. مفهوم الأسلوب عند الباقلاني:

لقد كان للباقلاني مفهومه الخاص للأسلوب من خلال زاوية نظره الخاصة فلقد رأى "أن القرآن بدیع النظم عجيب التأليف، وأنّ النظم القرآني على تصرف وجوهه وتباين مذهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمؤلف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، ومن خلال هذا الحديث عن أسلوب القرآن يربط الرجل الأسلوب والنوع الأدبي لكي يكون ذلك دعامة في إثبات تفرد القرآن بالنظم العجيب، المخالف لضروب الصناعة التي يعرفها الشعراء ويستخدمونها في شعرهم." (المطلب، 1994م، صفحة 15)، فإذا الباقلاني يربط بين الأسلوب والنوع الأدبي

في مفهوم الأسلوب، فالقرآن تفرّد بأسلوبه المخالف للأساليب التي عرفها الشعراء في شعرهم. "فإذا كان الأدب صناعة وكانت الفنون عند كثير من النقاد مظهر اقتدار الأدباء وتمكنهم من فنّهم، فإنّ ورودها في القرآن في صورة أبهى، قد يكون من وسائل الاحتجاج في إثبات تفوق الأسلوب القرآني على غيره من الأساليب، فليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون المقفى." (المطلب، 1994م، صفحة 16) ومن خلال هذا نخلص إلى أنّه مهما كانت قيمة الفنون عند النقاد في اعتبارها مقياس لاقتدار الأدباء وتمكنهم من فنّهم، إلّا أنّ صورتها في القرآن مخالفة للمعهود، فيتحوّل هذا المعيار أو المقياس إلى حجة تُثبت تفوّق الأسلوب القرآنيّ على غيره من الأساليب.

ويُثبت الباقلائي مخالفة القرآن الكريم لكلام العرب فيقول: "فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن، وأسبابه وطرقه، وأبوابه من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع، وسهولة اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول... وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الواقع في القلوب، والتمكّن في النفوس ما يُذهل ويُبهج ويُقلق ويُؤنس ويُطمح ويُؤيس ويُضحك ويُبكي ويُجزن ويُفرح ويُسكن ويُعجز ويُشجي ويُطرب... وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة." (عباس، 2006م، صفحة 346)؛ أي أنّه جمع بين طريق أهل البديع، وطريق أنصار التأليف والنّظم.

كما يرى "أنّ الاختلاف في وجه الإعجاز من باب الاختلاف في طريقة الاستدلال فقط وأنّه لا أثر لذلك في ثبوت الإعجاز أو قيمته وقدره في النفوس، فالطرق مختلفة والنتيجة واحدة، وقد تختلف الطرق عن بعضها، فبعضها أوضح أو أجود أو أقرب من بعض." (العواجي، 1427هـ، صفحة 369) فالباقلاني هنا أشار إلى نقطة مهمة ألا وهي العلاقة القائمة بين الأسلوب والإعجاز، فرأى أنّ الاختلاف في الإعجاز هو من باب الاختلاف في الأساليب والطرق التي يُستدل بها؛ أي أنّ لكلّ واحد أسلوب ينهجه في بحثه عن وجوه الإعجاز القرآني، فالاختلاف في الأساليب لا يمسّ الإعجاز في شيء، فالطرق مختلفة والنتيجة واحدة.

أما عن وجوه الإعجاز القرآني عند الباقلائي "فقد عرفنا أنّها في نظمه العجيب وأسلوبه المخالف لكلّ الأساليب، ولَمّا كان كلام العرب يشتمل على بعض فنون البلاغة التي وردت في القرآن مع اختلاف

التناول، رأى الباقلائي أنه وجوه البلاغة وقد أطلق عليه البديع، ولا تكفي للوقوف على إعجاز القرآن محتجاً بأنها يمكن التدرّب عليها والإتيان بمثلها. " (فضل، 1419هـ/1998م، صفحة 33)، فالباقلائي يرى أن وجوه البلاغة غير كافية للوقوف على إعجاز القرآن محتجاً بأنه يمكن الإتيان بمثلها عن طريق التدرّب أو المران. "فالباقلائي كما نرى يمنع أن يكون لفنون البلاغة مدخلا في الإعجاز، بحجة أنه يمكن التوصل إليها بالتعلّم والتدرّب، والمُعجز ما لا يُقدر على صنع مثله أحد، غير أننا نقول أنّ التركيب القرآني أخرج هذه الفنون إلى درجة معجزة، كما أخرج ألفاظ العرب في صورة جديدة، وإنّ عجز العرب الذين فُطروا على اللّغة وطُبعوا على البلاغة الإتيان بمثله، فكيف يتيسر ذلك لمن يتعلم فنون البلاغة. " (فضل، 1419هـ/1998م، صفحة 24)

إذاً يرى الباقلائي أنّ فنون البلاغة كلّها يمكن تعلّمها، ولهذا لا يمكن اعتبارها وجهاً للإعجاز القرآني، فالعرب الذين طُبعوا على البلاغة لم يتيسر لهم الإتيان بمثله، فكيف يتسنى ذلك لمن تعلم البلاغة.

2.4. مفهوم الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني:

يُعتبر عبد القاهر الجرجاني من العلماء الذين وقفوا عند قضية الإعجاز القرآني وأسلوبه، وقد قدّم مفهومًا للأسلوب بحيث ربطه "بمفهومه للنّظم من حيث هو نظم المعاني وترتيب لها، وهو يُطابق بينهما من حيث كانا يمثلان تنوعاً لغوياً فردياً يصدر عن وعي واختيار، من حيث إمكانية هذه التنوعات في أن تصنع نسقاً وترتيباً يعتمد على إمكانات النحْو... وعلاقة النّظم بالأسلوب هي علاقة الجزء بالكلّ". (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 16) إذاً مفهوم الأسلوب عند الجرجاني مرتبط بمفهوم النّظم وجعل هذه العلاقة كعلاقة الجزء بالكلّ "وهكذا فإنّ النّظم يتحقّق عند الجرجاني عن طريق إدراك المعاني النحوية واستغلال هذا الإدراك في حسن الاختيار والتأليف... ويتوخى الجرجاني من خلال معالجته فكرة النّظم النسق اللغوي والصحة النحوية وترابط كليهما. " (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 16) وهنا نلاحظ أنّ الجرجاني يرى أنّ النّظم لا يتحقّق إلاّ بإدراك المعاني النحوية، ومنه يستغلّ هذا الإدراك من أجل الاختيار والتأليف الحسن؛ أي بتوخّي المعاني النحوية نصل إلى الأسلوب الحسن.

"ويتّضح تحليل الجرجاني الأسلوبى من خلال تحليله لآيات قرآنية وأبيات شعرية، إذ يقوم بتحليل جزئيات التركيب وأسلوب الأداء، من حيث التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والإضمار والتكرار... والأسلوب عند الجرجاني الضرب من النظم والطريقة فيه." (العدوس، 1427هـ/2007م، صفحة 17)، فالجرجاني إذاً يرى أنّ الأسلوب ضربٌ من النظم ولا بدّ من توفر عمليّة الوعي في تركيب الأسلوب. كما يربط الجرجاني الأسلوب "بطريقة أداء المعنى على وجه معيّن عن طريق التمثيل، وإن كان مما مضى إلّا أنّ الأسلوب غيره، وهو أنّ المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحُوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له، والهمّة في طلبه، وما كان منه ألطف، كان امتناعه عليك أكثر وإبأؤه أظهر واحتياجه أشدّ." (المطلب، 1994م، صفحة 23)

فالأسلوب يرتبط بطريقة أداء المعنى، فمثلاً كلّ ما كان أداء الأديب أفضل كان أسلوبه راقٍ يشدّ إليه المتلقي؛ أي أنّ طريقة أداء المعنى تعكس نوعيّة الأسلوب.

ويستمر عبد القاهر في ربط مفهومه للأسلوب بالخصائص التعبيرية، مما يؤكّد ارتباط الأسلوب عنده بأنماط من الأداء في تركيب العبارة، فيعلّق على قول: محمد بن وهب:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتُهُ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يَمْتَدِّحُ

حيث جعل الشاعر وجه الخليفة أعرف وأشهر وأتمّ وأكمل من النور والضياء من الصباح، فاستقام له بهذه النية أن يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلاً. (المطلب، 1994م، صفحة 24)

فعبد القاهر الجرجاني يؤكّد على العلاقة القائمة بين أنماط التعبير وخاصيّة الأسلوب، "حيث كان هذا الأسلوب يقوم عادة على نظم العلاقات بين الكلمات ثمّ بين الجمل، في شكل انحراف عن المستوى المألوف في التعبير، من خلال تحليل المواصفات النحويّة للأسلوب وارتباطها بالمقدرة الفنيّة الإبداعية عند الأديب." (المطلب، 1994م، صفحة 24)

إذا هو يرى أنّ الأديب ينزاح عن المستوى التعبيري المألوف وذلك اعتباراً للإبداع الفني الذي يقتضيه، وهذا شكل من الأسلوب الذي يعتمد على نظم العلاقات بين الكلمات وبين الجمل "وعلى كلّ مفهوميّ عبد القاهر للأسلوب يرتبط تنظيراً وتطبيقاً بمفهوميّ النظم من حيث كان نظماً للمعاني وترتيباً لها ولا يتوهم

متوهم أننا نحتاج إلى أن نطلب اللفظ، لأنّ الذي يحتاج إلى طلبه هو ترتيب الألفاظ في النطق لا محالة، وهو يدعوننا إلى الرجوع إلى نفوسنا فننظر هل يتصور أنّ ترتيب المعاني، أسماء وأفعال وحروف في النفس، ثمّ يخفى علينا مواقعها في النطق حتى يحتاج ذلك إلى فكر وروية. " (المطلب، 1994م، صفحة 25)

فمما لا شك فيه وهو في علم كل عاقل أنّنا نطلب المعنى، واللفظ يأتي إزاءه، ومنه الأسلوب يتتبع الطريقة المناسبة في ترتيب المعاني.

فبعد القاهر الجرجاني يُعدّ رائداً في فهم المستوى الأسلوبي للنص، من خلال نظرية النظم وملاحظاته الدقيقة للعلاقة بين الأسلوب الذي هو صياغة الكلام، وبين اللغة والتحو والبلاغة، وبذلك يقترب كثيرا من الأسلوبيين. (عودة، 2006م، صفحة 11)؛ أي أنّ هناك علاقة بين الأسلوب والنظم والإعجاز وها هو مصطلح النظم يتردّد في هذه النقطة، وهذا أمر منتظر من صاحب نظرية النظم الإمام الجرجاني.

ونبقى في دائرة اعتبار الأسلوب ضرباً من النظم بحيث "النظم كلّه بمختلف درجاته يعدّ مستوى من مستويات الأسلوب الرفيع، لا ترقى له كلّ الأساليب الأدبية، فقد يكون هذا الأسلوب صحيح وداخل في دائرة الأساليب الأدبية، ولكنّه لا يعدّ داخلاً في دائرة النظم، بل يمكن تفسير جماله بطريقة أخرى من طرق تفسير الجمال الأسلوبي مثل اللفظ أو المعنى." (درويش، دت، صفحة 109)، ومن هنا فإنّ عبد القاهر يتدرج بالأسلوب تدريجياً تصاعدياً، فهناك نوع من الأسلوب لا يرجع جماله إلى النظم، وإتّما يعود إلى اللفظ والمعنى، وهناك نوع آخر من الأسلوب يعود سرّ جماله إلى النظم بشروطه. (درويش، دت، الصفحات 109-110) ومن خلال ما سبق نصل إلى فكرة جوهرية مفادها أنّه لا يمكن الحديث عن الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني بمعزل عن نظرية النظم.

وعليه "ليس من الشك أنّ الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف في كثيرٍ عن نظرية النظم العربي التي وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه النفيس دلائل الإعجاز، وحين صاغ عبد القاهر آراءه في النظم لم يكن يبعد عن فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام، وجعل بعضه بسبب بعض فكان ذلك تفصيلاً واسعاً للأسلوب وتحديدًا قريباً من مفهوم الأسلوبية في المذاهب العربية الحديثة."؛ أي أنّ ما

جاءت به الأسلوبية ليس بجديد عن الفكر العربي، فقد تطرق لها علماءنا العرب منذ القدم والاختلاف يبقى يشمل الجانب المصطلحي. (خفاجي، 1412هـ/1991م، صفحة 6)

4. خاتمة:

وفي الختام نتوصل إلى النتائج الآتية:

-مصطلح الأسلوب له أسبقية تاريخية ودلالية من مصطلح الأسلوبية، من خلال تتبع التطور التاريخي للمصطلح، والدليل على ترابط البلاغة والأسلوب هو أنّ نزعة تقسيم الأسلوب تتشابه والنزعة المماثلة التي سادت في البلاغة العربية، وهذا ما يفسّر أسبقية الفكر البلاغي العربي على استحواذ هذا المصطلح.

-رغم المفارقات بين الأسلوب والأسلوبية إلا أنّ هناك نقاط تداخل، منها استناد الأسلوبية على الأسلوب في دراستها لمستويات الكلام، كونها ولدت في أحضان الدراسات اللغوية، فقد سعت إلى تحديد المادة الكلامية التي تصلح لمثل هذه الدراسة، ومنه كان لزاما عليها أن يكون الكلام ذا مستوى فيّ وفي هذا الباب وجدت نفسها تعود إلى الأسلوب.

-إنّ التداخل بين الأسلوب والأسلوبية يشبه إلى حدّ ما، تداخل الأسلوب والبلاغة غير أنّه تبقى هناك مفارقات عديدة منها الفارق الزمني بين القدم والحداثة.

-إنّ الحيز أو الدائرة التي يشغلها مصطلح الأسلوب من ناحية المعنى اللغوي أوسع من الدائرة التي يشغلها مصطلح الأسلوبية، فمصطلح الأسلوب استخدامه يتسع ليشمل الدراسة البلاغية والنقدية، في حين الأسلوبية هدفها الوصول إلى وصف وتقييم علمي محدّد لجماليات التعبير في مجال الدراسات الأدبية واللغوية.

-إنّ ظهور مصطلح الأسلوبية لم يبلغ الأسلوب، وإنّما رُسمت للمصطلح القديم دائرة ووظيفة في إطار المصطلح الجديد.

-يربط الباقلاني مفهومه للأسلوب بالنوع الأدبي، ويرى أنّ القرآن قد تفرّد بأسلوبه الخاص، وإذا كانت الفنون تُعتبر عند النقاد مقياسا لاقتدار الأدباء، فإنّ صورتها في القرآن تختلف لتُصبح دليلا وحجة تثبت تفوق الأسلوب القرآني على غيره من الأساليب.

- يعتبر الباقلائي البلاغة وجها من وجوه إعجاز القرآن ولا يقتصر عليها وحدها فقط، ففنون البلاغة يمكن تعلّمها ولهذا لا يمكن اعتبارها وحدها للإعجاز القرآني، ووجود البلاغة أمر غير كاف لإثبات إعجاز القرآن محتجاً أنّه يمكن الإتيان بمثلها عن طريق التدرّب والمران.

- أشار الباقلائي إلى نقطة مهمة وهي علاقة الأسلوب بالإعجاز، فرأى أنّ الاختلاف في الإعجاز هو من باب الاختلاف في الأساليب والطرق، فلكلّ أسلوبه الذي ينهجه في النظم إلى وجوه الإعجاز القرآني وتبقى النتيجة واحدة.

- لقد ربط الجرجاني مفهومه للأسلوب بالنظم وجعل هذه العلاقة كعلاقة الجزء بالكلّ، وأنّ النظم لا يتحقّق إلاّ بإدراك المعاني اللغويّة، ومنه يشغل هذا الإدراك من أجل الاختيار والتأليف الحسن، ومنه نصل إلى أنّ توخي المعاني النحويّة يوصلنا إلى الأسلوب الجيّد والرفيع.

- يرى الجرجاني أنّ الأسلوب ضرب من النظم ولا بدّ من توفر عمليّة الوعي في تركيب الأسلوب، كما يربط الأسلوب بطريقة أداء المعنى فكلما كان الأداء أفضل كان الأسلوب راقياً؛ أي طريقة أداء المعنى تعكس نوعيّة الأسلوب.

- يرى الجرجاني أنّ الأديب ينزاح عن المستوى التعبيري المألوف وذلك اعتباراً للإبداع الفني الذي يقتضيه، وهذا شكل من الأسلوب الذي يعتمد على نظم العلاقات بين الكلمات والجمل.

- إنّ الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف عن نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، فلقد كان بحثه تفصيلاً واسعاً للأسلوب وتحديدًا قريباً من الأسلوبية المعاصرة.

5. قائمة المراجع:

1. أبو العدوس، يوسف، (1427هـ/2007م)، *الأسلوبية الرؤيـة والتطبيق*، دار المسيرة، عمان-الأردن.
2. ابن منظور، (2000)، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت-لبنان.
3. الجاحظ، (دت)، *البيان والتبيين*، دار الجيل، بيروت-لبنان.
4. الجوهري، إسماعيل بن حماد، (1420هـ/1999م)، *تاج اللغة وصحاح العربية*، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
5. حريز، سامي محمد هاشم، (2006)، *نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا*، دار الشروق، عمان-الأردن.
6. خفاجي، محمد عبد المنعم وآخرون، (1412هـ/1991م)، *الأسلوبية والبيان العربي*، الدار المصرية اللبنانية.
7. درويش، أحمد، (دت)، *دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث*، دار غريب، القاهرة-مصر.
8. الرازي، (1979م)، *مختار الصحاح*، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان.
9. عباس، إحسان، (2006م)، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري*، دار الشروق، عمان-الأردن.
10. عبد المطلب، محمد، (1994م)، *البلاغة والأسلوبية*، مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر لـونجمان، لبنان.
11. عودة، ميس خليل محمد، (2006م)، *تأصيل الأسلوبية في الموروث النقدي والبلاغي كتاب مفتاح العلوم للسكاكي نموذجاً، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس-فلسطين.*

12. العوّاجي، محمد بن عبد العزيز، (1427هـ)، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام بن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، مكتبة دار المنهاج، الرياض-المملكة العربية السعودية.
13. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (1423هـ/2003م)، معجم العين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
14. فضل، صلاح، (1419هـ/1998م)، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة-مصر.
15. القيرواني، ابن رشيق، (دت)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (الإصدار ط1، المجلد الجزء1)، المكتبة العصرية صيدا، بيروت-لبنان.